عود إلى داء الشعور بالحقارة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

والمصاب بداء الشعور بالحقارة إذا أفدته علماً أو مالاً تباهى به عليك وتلمس الوسائل كى يظهر بمظهر المانح كأنما يمنحك فضلاً أو عوناً ، إما بأخذه ما أخذ منك ، وإما بدلا منه . وهو لا ينسى لك فضلاً ويحسدك على نعمتك حتى تزول ولو كان في زوال نعمتك زوال نعمته ، ويحاول أن يخفى فضلك عليه حتى على أكثر الناس علماً بما أفدته ، ويحاول أن يجند منهم أعواناً له ضدك بأن يظهرك بمظهر العداوة لهم وقلة الخير والزهد فيهم ، فإذا عاتبته واضطررت أن تذكره بمعونتك كى تبتعث الحنان فى قلبه عدّ إشارتك التى استثارها بعمله أو حديثه امتناناً منك عليه ، فيزداد لك عداوة . وهو بالرغم من مقابلته المعروف بالاساءة يطمع فى المزيد مما عندك وإن ظهر بمظهر العائف له . وهو سلاح فى يد أعدائك حتى وإن لم يدر ذلك ، لأنه قد يغالط نفسه أو يغالطونه ويخادعونه

ومن المصابين بداء الشعور بالحقارة من ينغص عيشة من يعاشره باظهار حدة الطبع ورفع الصوت والعراك ، لأنه يرى فى كثرة العراك تعاظماً وتعالياً يخفى ما يشعر به فى سريرة نفسه من الوجل والخوف من أن يحقر . ومن المصابين بهذا الداء من يعد سفاهة لسانه سياجاً يحوط به عظمته الموهومة التى يخفى بها ماهو كامن فى سريرة نفسه من الشعور بالحقارة التى قد يظنها عظمة

ومنهم من يتلمس الفرص كى يسمع الناس صوته كأنما صوته جرس يدق إيذاناً بالعظمة التى يخفى بها خوفه من التحقير

وترى الواحد من هؤلاء لا يتعفف عن مدح نفسه والاشادة بآرائه وأفكاره وإعجاب الناس بها واحترامهم إياه بسببها ، وهذه الخطة قد تكون مكراً ووسيلة كوسيلة التاجر فى الاعلان عن بضاعته وإن عرف أن بضاعته غير مزجاة ؛ وصاحبها مع ذلك مطمئن النفس لا يبالى إذا لم يصدقه السامع ، ولكنها قد تكون خطة مسعور متكالب على الناس يرجو احترامهم ولا يستطيع أن يعيش من غيره ولا يهنأ حتى ولو فقد مثقال ذرة منه ، وهو يتفرس في وجوه الناس كى يرى هل صدق السامع حديث إعجاب الناس به . وكلما كان الرجل من هؤلاء المصابين بداء الشعور بالحقارة مفلساً من المال أو الجاه أو العلم كان حقده أشد ، ونكايته أنكى ، وصوته أكثر إيذاناً بالعظمة التى يحاول أن يخفى بها المرض .

وقد تزول أسباب المرض من إفلاس فى مال أو علم أو جاه ، ولكنه يبقى طبعاً فى النفس لا تستطيع مداواته . ومن العجيب فى أمر المصابين بداء الشعور بالحقارة أنهم قد يخلصون أو يتظاهرون بالاخلاص — وهو الصواب — لمن لا يرجون منه خيراً ولا نفعاً ، ويختصون بالاعتنات من يرجى منه الخير أو من أصابهم منه خير ، لأن الدّين ربما عدوه نقصا . وهؤلاء المصابون بداء الشعور بالحقارة يود بعضهم بعضا بالغريزة ، ويساعد بعضهم بعضا ما دام ليست بينهم خصومة على خير مرجو ، وما دام لا يحجب أحدهم الآخر عن الظهور ؛ وهم عند ما يساعد بعضهم بعضا يكونون كأنما هم حلف على الباطل قد عمل بحرف الحديث : (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوما) وأغفل معناه الحقيق ؛ وهم إذا تعاونوا على الباطل يعرفون أنهم لا يشبعون نهمتهم من المظمة الباطلة التى يخفون بها ما كمن من الشعور بالحقارة إلا بالتساند ؛ أما إذا تخاصموا على مظهر من مظاهر التعاظم فلا يتعففون من التحارب بأقذر سلاح كما كانوا يتعاونون به

وهم يضحون بالسعادة والصحة والمال ويأحب عزيز وبسعادة كل من يعوقهم كى يبلغوا مظاهر التعاظم التى يخفون بها ما كمن فى العقل الباطن وفى السريرة من الشعور بالحقارة . وإذا بلغ هذا المرض أشده لم يحجم صاحبه عن الجرائم ؛ وقد يؤدى إلى الجنون وهو مرض شائع ، وبعض مظاهره ليست حادة ولا مسببة للحزن والتعاسة كما تسبب حالاته الشديدة . فمن حالاته البسيطة التى ربما كانت تدعو إلى الفكاهة أن يقابلك إنسان مصاب بهذا المرض وهو يعرف اسمك تمام المعرفة فيناديك باسم آخر ، فإذا كان اسمك محمدا قال : كيف حالك يا مصطفى بك ؟ وهو يفعل ذلك كى يشعرك أنه أعظم شأناً من أن يتذكر اسمك ؛ فإذا صححت له اسمك اعتذر ثم يعود بعد قليل فيناديك بالاسم الخطأ : قائلاً أليس الأمر كذلك يا مصطفى بك ؟ ولا يناديك باسمك مهما صححت خطأه . ومنهم الصغير المنزلة الذى يقابلك فيتلطف فى الحديث فإذا لمح إنساناً يعرفه رفع صوته بلهجة الآمر كى يشعر السامع أنك تقبل منه هذه اللهجة لعظم أمره . ومنهم صاحب الأباريق فى قصة الموظف المشهورة الذى أحيل على المعاش فاشترى أباريق وملأها ماء وجلس عند المسجد الجامع يقول لكل طالب ماء بلهجة الآمر : خذ هذا ... لا تأخذ ذاك . وهذا المثل الأخير قد

يكون من أمثلة داء الشعور بالعظمة ، والحقيقة أن مظاهر داء الشعور بالعظمة ، ومظاهر داء الشعور بالحقارة قد تختلط ، ولكن المحك الذي تعرف به وتميز هو إما ثقة صاحب الداء بنفسه وعظمتها ثقة لا تدعو إلى القلق ، وإما أن مظاهر تعاظمه يخالطها القلق والحقد والحسد والدناءة والسفالة ، فالأول أكثر اطمئناناً حتى أنه قد لا يشعر بسخر الساخر به ، وقد يكون فى تكبره كريماً أو رحيم النفس ، وهو إذا ارتكب إثماً فإنما يرتكبه باسم العظمة والاصلاح ، ويرتكبه وهو مطمئن وادع لا حقد يشوب إثمه ولا قلق ولا دناءة كما تشوب هذه الصفات إثم المصاب بداء الشعور بالحقارة ، والأول إذا تواضع تواضع فى كبر المبالغ الواثق بنفسه ، وإذا تكبر تكبر بكبر الواثق بنفسه الذى لا يشعر بسخر الناس به ، وهذا المصاب بداء العظمة لا يتلصص فى تحايله ووسائله كما يفعل صاحب الشعور بالحقارة الذى هو أميل إلى الكيد والدس

والموظف الصغير النزلة فى المصرف أو فى الدواوين الذي يتعالى ويتعاظم ويتصام ويتفخم ويحملق فى وجوه أصحاب الحاجات ويتباطأ فى إجابتهم من غير سبب أو معذرة إنما هو مصاب بداء الشعور بالحقارة . ولعله يتشفى بهذه الأحوال مما أصاب نفسه من تعاظم من هو أعلى منه منزلة ، تعاظماً شعرت به الذلة والمسكنة. وفى بعض حالات هذا المرض لا ترى سبباً ظاهراً له ، فقد يصاب به الرجل من بيت عز وعلم فتتلمس العلل الخفية فتقول هل طغى عليه أبوه فى تربيته في الصغر طغياناً يشعره الذلة والمسكنة ، فاذا ورث أباه غطى ما ورثه على ذلك الداء من غير أن يعصمه من الأقوال والأعمال الناشئة منه ، أم هل ورث هذا الشعور عن أجداده ، أم أنه داء يعدى كما تعدى بعض الأمراض النفسية بالمحاكاة ولطول العشرة وحكم البيئة

ومما يلاحظ أن المحاكاة والعشرة والبيئة قد تنقل مظاهر هذا الداء فى المدارس من تلاميذ مصابين به إلى تلاميذ على الفطرة والسذاجة . ولعل المدارس المصرية أكثر مدارس العالم ديمقراطية لكثرة مجانية الفقر للتفوق ولانخفاض المصروفات فهى تساعد انتقال الصفات من طبقة إلى طبقة ، فالفقراء يحاكون الأغنياء فيخسرون ، وأبناء الأسر الطيبة تحاكى أبناء أسر أقل طيبة فيخسرون أيضاً وإن كان لهذه الديمقراطية مزايا

عبد الرحمن شكرى

من بريد القلق

من أحب المطالعات إلى نفسى كتب العالم الرياضى «هنرى بوانكاريه» . عندى من مؤلفاته ثلاثة كتب : «العلم والطريقة» و «العلم والفرض» و «قيمة العلم» . قرأتها لأول مرة منذ عشر سنوات . وأعود إليها من حين إلى حين . إنها لتسحرني كما تسحر الأطفال قصص ألف ليلة وليلة . فأنا الآن لا أقرأ كثيراً كتب الأدب . لأنى أنا نفسى أصنع كتباً فى الأدب . ولكني أحب أن أصغى إلى أولئك الذين يبحثون فى صمت عن الحقيقة . هؤلاء الذين عندهم ما يقولون ولكنهم يترفعون عن الكلام . فإن الحقيقة التى يحاولون أن يتصيدوا شبح خطاها خلف « الكرسكوبات » و« التلسكوبات » لأروع من أن توضع فى ألفاظ وعبارات . على أن ما يعنينى من كلام هؤلاء العلماء ليس الأرقام والمعادلات أى « الوسائل » ، ولا يعنينى كذلك ما وصلوا إليه من « نتائج » ، ولكن الذى أقرأ من أجله كتبهم هو تلك الإشراقات الذهنية التى تلمع من خلال بحوثهم فتضىء جانباً من جوانب الفكر المهجورة . ليس العلم فى ذاته هو الذى يهمنى ، ولكن هى «العقلية العلمية» فى مصادمتها ومواجهتها للأشياء . لاشىء يلذ لي مثل مجالسة «عالم» متسع الأفق . وهذا النعت لا ألقيه جزافاً ، فان من كبار رجال العلم من هم ضيقو الأفق ، أى سجناء معادلاتهم وأرقامهم ، يصلون بها مع ذلك إلى نتائج باهرة فى صميم العلم ، ولكنهم قلما ينظرون إلى العالم الخارجى . إنما الطراز الذى أقصد ، هو طراز رجل العلم المطبوع الذى يخرج بعد ذلك لينظر بعين العلم وعقلية العلم إلى الكون بمعناه الواسع . هى « فلسفة العلم » . ما أريد هنا بعد هذه القراءات أن يتضح لي أنا «رجل الأدب» كيف أن مخلوقاً آخر يسمى « رجل العلم » ينظر إلى ذات الأشياء التى أنظر إليها ويفكر فى هذا الكون الذى أفكر فيه ولكن بعين أخرى وعقل آخر . ومن يدرى ؟ لعل أكثر هؤلاء العلماء هم أيضاً لا يلذ لهم شىء مثل قراءة ومجالسة « رجال الأدب » فما الأمر فى باطنه إلا شوق وحب استطلاع بين نوعين مختلفين من هذا الحيوان المفكر

توفيق الحكيم